يمانية

الحكمة

لسان حال اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين

عدد وكرسي

للرواية اليمنية

العدد 137 □ السنة السابعة عشرة □ ابريل 1987

من تاريخ جزيرة صيرة باليمن الديمقراطية

أحمد صالح رابضه

صيره لغوياً :

الملاحظ أن المصادر التي وقفنا عليها على شحة مادتها تشير وباختصار إلى تاريخ الجزيرة بصفة عامة بأستثناء المصادر الأوروبية ولكنها على أية حال تنقل كماً حرية بالدرس على الرغم من اتفاقها في النقل الصريح من بعضها البعض .

وقد استعنا بمعجمات اللغة في تعريف التسمية «صيره» التي اطلقت على الجزيرة كلها بما في ذلك القلعة القديمة المندرسه . والتي اختلف الباحثون المحليون في تعريفها فقد ذكر صاحب تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية(١) وله قصب السبق في تناول هذه الموضوعات ثلاثة حلول للتسمية :

أولها — أن المستعمرين البرتغاليين اطلقوا اسم سيرا ومعناها جبل على هذه البقعة .

وثانيها — ان الهنود كانوا يسمون عدن سيراسيت ولعلها

اشارة إلى اسطورة راس الخني راون الذي يسكن السلسلة الجبلية الممتدة من جبل الخضراء (البنديره(إلى جبل التعكر (حديد).(٢)

وثالثها – ان صيره في العربية تعني السمك الصغير أو السردين أو الشقوق والكهوف.

ويعقب الباحث على ذلك بقوله أن بحر صيره ملئ (بالعيده) وبالشقوق والكهوف أيضاً ثم يخلص إلى القول أن هذا هو الحل الصحيح للتسمية .

ويبدو انه التبس عليه الأمر فانتزع لفظة صيره من المعجمات واطلقها دون روية وامعان على نوع من السمك يوجد في سواحلنا نسميه العيده أو العيد ومن مواطنه ساحل الشحر وقد أكد لي بعض الصيادين الماهرين أن نوعاً آخر من السمك نسميه (الليه(هو كثير الشبه بالعيده ينتشر في جزيرة صيره ولكنه أصغر حجماً من العيده .

وعندما رجعنا إلى هذه المعجمات العامة والمتخصصة .تبين لنا أن لفظة صير بالمعنى الذي وقف عليه الباحث تعني أولا الصحناءة أو الصحناة وقد اطلقها أحمد تيمور وحده(٣) على السمك المملح المعلب المعروف بالسردين وليس على السمك في حالته الطبيعية .

ثانياً – إن الصير بمعنى الشق لانطلقها على الشقوق والكهوف البحرية فيما نعلم فقد ورد في الحديث النبوي (انه من نظر في صير باب وفقئت عينه فهي هدر)(٤) ووردت بهذا المعنى في كل المعجمات بيد أنه يجدر بنا أن نشير إلى معان أخرى للتسمية وردت في معاجم مختلفة هي أقرب إلى الصحة فيما نظن فمثلا ذكر ياقوت في معجمه(٦(أن صيره بالكسر هي حظيرة تعمل للغنم من حجارة وقد تبنى من خشب أو اغصان كما يقول أحمد رضا(٧) ، والمعروف فيما يذكر المؤرخون أن أهل عدن كانوا يأخذون في

القرون الماضية سبعة ثيران ويذهبون بها إلى جبل صبره حيث تبقى هناك حتى مطلع الفجر فيذبحون واحداً منها على سبيل التضحية فلعلهم كانوا يحفظون هذه الثيران في حظيرة يطلقون عليها صبره ويسمي المؤرخ بامخرمه هذه العادة ضحية الجبل(٨) ويقول انهم يقدمون ذلك قرباناً للأرواح الشريرة التي تعبث على حد زعمهم بأمواج البحر وتعرقل سير السفن والحقيقة أن الرياح الموسمية التي تهب في موسم الشتاء هي التي تبعث على تعثر السفن في شواطئ صبره .

ويذكر صديقنا الفاضل الأستاذ المؤرخ البحري حسن صالح شهاب أن ثمة مواضع وجزر تتسمى بالصبر منها صبر أبو نعير وهي جزيرة بين دبي وجزيرة داس وصبر بني ياس وهي قريبة من ساحل أبوظبي وصبروت وهي بندر على ساحل ايران(٩(ويعلل التسمية تعليلا أقرب إلى الصواب اذ يقول أن لفظة صبره مصطلح بحري للصخره فالبحارة حينما يرسون في مرسى فيه صخره أو جبيل يقولون (هذا مرسى فيه صبره) وصاره الجبل عند البكري(١٠) راسه ، ونحن نميل إلى الأخذ بهذا التعليل لكثرة ورود مثل هذه المصطلحات في المصنفات البحرية واختفائها في المعجمات ، ويعزو أحمد رضا هذه اللفظة في معنى من معانيها إلى عاد وارم(١١) وهذا مايؤكد جذورها في اللهجات اليمنية القديمة المندثرة إلا أنه يعوزنا الدليل العلمي الصريح في هذا الصدد .

جزيرة صبره والميناء القديم :

إن هذا الاستنتاج الذي توصلنا اليه من خلال دراسة اللفظة (صبره(يؤكد مما لايدعو مجالا للشك أن البحارة الأقدمين كانوا يطلقون التسمية على المراسي الجبلية أو بالاحرى المراسي

التي تقف على سفحها التلال أو الجبال الصغيرة أو مايسميها الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ (الضلع(أو (القرن) (٢) ، وفي جزيرة صيره الواقعة في الخليج الأمامي بمدينة عدن يقع احدى هذه المراسي القديمة متوسداً ضفاف البحر ويقف على عتبته جبيل شامخ هو المعروف بجبل صيره .

ويبدو واضحاً أن هذا الموضع يعد من أهم المنافذ التي تفضي إلى قلب المدينة — إن لم يكن الوحيد وتحتفظ مياهه بثروات معدنية منها معادن اللؤلؤ كما يقول الكرخي المتوفى في أواخر القرن الرابع ، وقد شهد هذا الموضع معارك دامية خاضها اليمانيون ضد كل أنواع القرصنة بدءاً بحروب ارياط مع ذي نواس الحميري على مايذكر الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢هـ(١٤(وانتهاء بالمستعمرين البريطانيين بقيادة القرصان هينس .

وكان مرفأ تجارياً هاماً يستقبل السفن الهندية من مختلف المقاطعات(١٥) والسفن الصينية والفارسية والعمانية والمصرية والحجازية والحبشية(١٦).

وكانت تستودع فيه مختلف المنتجات العالمية التي تنقل بعد ذلك إلى مرافئ أخرى على سفن صغيرة تمخر عباب مضيق باب المندب(١٩) ويقدر ابن المجاور عدد السفن التي ترسو في الميناء بثمانين أو سبعين سفينة كل عام(٢٠) ويصف نشاطه التجاري فيقول والفرضه كالمحشر فيه المناقشة والمحاسبة والوزن والعدد(٢١).

نظام مراقبة السفن :

وقد استحدث في هذه الفترة نظام مراقبة السفن القادمة إلى الميناء وهو نظام جد بدائي ، نستطيع أن نطلق عليه الفنار البدائي يقوم به عدد من الحراس ، يقفون على قمتي جبل المنظر والخضراء ويراقبون قدوم السفن وهم يتمكنون بحكم الخبرة والممارسة من

مشاهدة السفن عن طريق عصى يركزونها على قمة الجبل وينظرون من طرفها الأعلى إلى الشيء المنظور فاذا كانت حركته في جهات عدة تبين لهم انه مجرد طائر أما اذا كانت الحركة بطيئة فيتيقنوا انها حركة سفينة قادمة إلى المرسى فيصرخ الحارس هيريا ويرددها الآخر وهكذا دواليك حتى يسمع الحارس الذي يقف على مقربة من الفرضه فيذهب إلى الوالي يخبره بقدوم سفينة(٢٢) ثم يأتي الوالي والمفتشون يسألون عن نوع البضائع وعدد الركاب والبحارة والجهة التي قدمت منها السفينة (ورما انتزعوا اشرعتها ليتأكدوا من أنها لن ترحل قبل تأدية الضريبة كما تقول جاكلين بيرن((٢٣).

نظام التفتيش :

كما استحدث نظامان آخران أحدهما نظام تفتيش الركاب والبضائع والآخر نظام الضرائب أو العشور ولعل كليهما استحدثا في عصر بني زريع.

وهناك موظفان اثنان يقومان بتفتيش الركاب أحدهما رجل يفتش كل أجزاء الجسم بما في ذلك (آليتي(الرجل(٢٤(وإمرأة عجوز تفتش النساء (وتضرب بيدها في أعجازهن وفروجهن كما يقول المؤرخ بامخرمه(٢٥(أما البضائع والأقمشة فتظل في الفرضه أياماً ثلاثة تتعرض لتفتيش دقيق ثم تدفع إلى أصحابها بعد أخذ العشور.

نظام الضرائب والعشور :

أما بالنسبة إلى نظام الضرائب والعشور فقد استجد في عصر بني زريع ، وكان يتأرجح من حيث تحديد الضريبة بين الأرتفاع والأنخفاض والأضطراب والشذوذ في بعض الأحيان فقد تفرض

ضرائب باهظة على بضائع معينة كالعود(٢٦(والكافور اذ يدفع التاجر على الفراسلة الواحدة من الكافور خمسة وعشرين دينار وعلى بهار(٢٧(الطباشير أحد وعشرين دينار وعلى بهار الفلفل ثمانية دنانير ودينار ضريبة جمركية على السفينة وديناريين اخريين (عند خروجه على الفرضه(٢٨) وتعفى بضائع أخرى من الضريبة كالحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون وزيت الزيتون والعسل والتيوس والماعز(٢٩) والسمك المملح ان كان بلا راس(٣٠(، وهذه البضائع جميعها هي القادمة من مصر والهند كما يقول ابن المجاور(٣١) والظريف في الأمر أن الضرائب لاتفرض على الحواري الحسان والعبيد الغلمان اذا كانت أعينهم واسعة (٣٢(وقد تحدث هذا كله في حضور حاكم المدينة والولاة (٣٣(اذ يذكر بامخرمه أن حاكم عدن عمران بن محمد بن سبأ كان يحضر في الميناء أثناء العشور .

والجدير بالذكر أن يهودياً اسمه خلف النهاوندي هو الذي حدد هذه الضرائب وقدمها كمقترح للدولة الزريعية التي وضعتها قيد التنفيذ مباشرة(٣٤) والمعروف أن اليهود ذو خبرة واسعة في هذا المجال وكانوا ينتشرون في مدينة عدن ولهم أحياء خاصة(٣٥(.

وقد لاحظ الرحالة الأوروبيون الأقدمون والمحدثون هذا النشاط الكبير للمرفأ ومنهم من قدم إلى عدن للتجسس فقط على أحوالها الإقتصادية والسياسية والتحقق من امكانية الوصول إلى مرافئها والعبور عبر مضايقها بحثاً عن مناطق نفوذ أكبر في العالم اذ أشارت جاكلين بيرن في مؤلفها اكتشاف جزيرة العرب إلى واحد من هؤلاء القراصنة هو (بدرودي كوفيلها) الذي بعثه المستعمرون البرتغاليون إلى شبه الجزيرة العربية عام ١٤٨٧م ، وقدم إلى عدن في العام نفسه ووصف مرفأها وصفاً دقيقاً(٣٦) وسبقه بزمن طويل الرحالة الايطالي ماركو بولو وسجل ملاحظاته

التي لم نقف عليها(٣٧).

ويبدو من كلام ابن بطوطه المتوفي سنة ٧٧٩هـ ـ ١٣٧٧م أن أهالي عدن المؤسرين كانوا يمتلكون بعض المراكب العظيمة الراسية في الميناء والتي تذر عليهم أرباحاً طائلة(٣٨).

نظام حماية السفن :

واستحدث في العصر الأيوبي نظام هو أشبه بأنظمة حماية السفن في عرض البحر ولكن مقابل ضريبة يدفعها ملاك السفن ارتفعت بعد سنة ثلاث عشرة وستمائة(٣٩) ولعل السبب في ارتفاعها يكمن في ضعف السياسة الإقتصادية في البلاد في عهد المستعمرين الأيوبيين ورغبتهم المتزايدة في استنزاف خيرات اليمن وذلك عن طريق القوانين الجائرة التي فرضوها على الأهالي وملاك السفن . ذكر ابن جبير المتوفي سنة ٦١٤هـ في رحلته أن عثمان الزنجبيلي والي عدن من قبل الأيوبيين نهب أموالا وذخائر عظيمة من عدن وفر إلى مصر ووصفه بسوء السيرة مع التجار والأهالي اذ (كانت المنافع التجارية كلها راجعة اليه والذخائر الهندية المجلوبة كلها واصله إلى يديه فأكتسب سحتاً عظيماً وحصل على كنوز قارونية على حد تعبيره)(٤٠) وقد تمكنت سفن الحراسة الليلية من تعقبه ومصادرة بعض هذه الأموال. والملاحظ أن الجزيرة كانت خالية قبل هذا الأجراء من سفن الحراسة الليلية في العصر الزريعي وربما كانت غير محصنة ومسورة اذ يورد ابن المجاور قصة المركب المغربي الذي أرسى في الميناء وتوجه صاحبه خفية إلى بيت الداعي ولعله عمران أو محمد بن سبأ دون علم بهما ، واخفى بضاعته في منزل أحدهما ، والظاهر أن هذا المنزل كان على مقربة من المرسى أو على جبل المنظر . ثم لما اسفر

الصبح تأكد التاجر أنه في منزل الوالي . وعفا عنه الوالي كما يذكر ابن المجاور ولكنه انتبه لهذا الأمر بتشييد أول سور لمدينة عدن يمتد من الجبل الأخضر إلى جبل حقات وقد تهدم هذا السور لضعفه فابتنى آخر ظل إلى عهد عثمان الزنجبيلي سالف الذكر الذي قام هو الآخر بتجديده ويبدو أنه حصن المدينة تحصيناً قوياً(٤١) فعندما زارها الجاسوس البرتغالي دي فارتيما حوالي سنة ١٥٠٣م ادهشته تحصيناتها القوية وأسوارها الممتدة على السلسلة الجبلية المحاطة بها(٤٢) ويبدو أنه لولا هذه التحصينات اضافة إلى القدرة القتالية لدى المدافعين اليمنيين لاستطاع الفونسو دي البوكرك من الأستيلاء عليها(٤٣).

قلعـــة صيره :

وتقف على عتبات الجزيرة (صخرة(عملاقة قبالة جبل المنظر(٤٤) هي مانطلق عليها اليوم جبل صيره وعلى ذروتها قلعة ترجع في تقديرات العالم السوفيتي سيرجي شيرنسكي إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين غير أنها مغطاة اليوم بتشييدات لاحقه كما أشار الخبير في تقريره العلمي المقدم إلى المركز اليمني للأبحاث الثقافية(٤٥).

والجدير بالذكر أن شيرنسكي قام بمسح ميداني للموقع والمح إلى امكانية دراسة تكوينه العمراني وسبر أغواره وأكد أن الموقع كان مأوى طيباً للناس وحماية للميناء من قراصنة البحار والغزو الخارجي(٤٧) ولم يأت بتفصيلات أخرى تتعلق بالتشييدات القديمة للقلعة المندثرة . والفترة الزمنية للتشييدات المستحدثة التي نراها اليوم وقعت في السادس والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٨٤م بزيارة لمعاينة الموقع عن كتب برفقة صديقنا الفاضل الأستاذ يوسف حسن السعيدي تبين لي من خلالها أن بناتها أختاروا

لها موقعاً استراتيجياً هاماً على ذروة الجبل يدل على قدرات اسلافنا اليمانيين الفائقة وقوة شكيمتهم . وتضحياتهم في سبيل الذود عن الأرض الطيبة وشاهدت مدافع كادت عوامل التعرية أن تطمرها وهي تدل على أن القلعة شهدت معارك حاسمة ضد الغزاة والقرصنة . وتعرضت غير مرة للتدمير . وقامت حكومات عدن في العصور الوسطى بترميمها وإعادة بنائها ويبدو أنها لم تدمر بعد ذلك وان زعمت بعض المصادر البريطانية أن السفن البريطانية التي هاجمت مدينة عدن دمرت القلعة بما فيها من المدافع(٤٨).

وعلى مسافة قصيرة من القلعة تقوم أطلال مبنى شبيه بالثكنة العسكرية تحتضن مدافع مطمورة ويفضي إلى واد أو مسيال صغير لعل لعوامل التعرية والسيول يد في شقه فمن المحتمل أن يكون هو هدف السفن البريطانية واذا ماصحت مزاعم هارولدف في هذا الصدد فمن المستبعد أن تعيد السلطات البريطانية بناء القلعة وبالطرائق القديمة في البناء . أما الحصن الصغير الذي يقف على مقربة من القلعة والذي نشاهده من أي موضع فسيح في المدينة فقد شيده المستعمرون البريطانيون في وقت متأخر في أغلب الظن . وهو يختلف اختلافاً بيناً من حيث بنائه عن القلعة.

وتعوزنا الأدلة في تحديد فترة بناء القلعة والحكومة أو الجهة التي مولت العمل اذ لم تسعفنا المصادر على قلتها بذلك ولكنها أشارت إلى حصون مختلفة بنيت في هذا الموضع ومواضع أخرى من الجزيرة لعل من المفيد الاشارة اليها . فقد ذكرت هذه المصادر أن آل زريع حكام عدن في الفترة مابين ٤٧٠-٥٦٩هـ ١٠٧٧-١١٧٣م هم أول من بنى الدور الحجر الذي كانت مواده تجلب من أبين وشيدوا بعض أسوار مدينة عدن وليس من المستبعد أن تكون لهم يد في بناء القلعة ولكن هذه الروايات

تؤكد من ناحية أخرى أن بيوت عدن في تلك الحقبة كانت مصنوعة من الخوص والقصب حتى أسوار المدينة نفسها لم تكن في عهدهم إلا من هذه المواد ولهذا سرعان ماتهدمت(٤٩) ثم جاء المستعمرون الأيوبيون ٥٦٩-٦٢٦هـ ١١٧٣-١٢٢٩م وجددوا الأسوار وأحكموا تحصينات المدينة فلعلهم بنوا القلعة أو جددوها وتزعم روايات أخرى أن الأقدمين بنوا (شصنه) (خلف مرسى المراكب من جهة البحر(٥٠) هدمت في عصر بني طاهر ٨٥٨-٩٣٣-٤٥٤-١٥٢٦م وبني عوضاً عنها (دار البندر) ثم هدمت هذه الدار أيضاً سنة ٩١٩هـ وبني بدلا عنها الحصن الذي في طرف جبل صيره(٥١(فلعل دي فارتيما سالف الذكر شاهد هذا الحصن اثناء زيارته لعدن عام ١٥٠٣م ولم يشر المقدسي إلى هذه المواضع ولا إلى القلعة وان ذكر الموضع الذي يخرج منه النار ، والمتبادر أنه استقى هذه المعلومة من مصنفات المؤرخين اليمانيين.

كما بنيت حصون أخرى على الجبال بناها قوم يطلق عليهم ابن المجاور (أهل القمر (٥٣(ويضيف أن بناءهم باق بالحجر والجص ملء تلك الأودية والجبال(٥٤)

وجملة القول أن هذه المصادر التي وقفنا عليها لم تفصح عن زمن بناء القلعة والتشييدات الأخرى المستحدثة عليها وان كنا نرجح ترجيحاً لانقيم عليه برهاناً ولا دليلا قاطعاً أن القلعة القديمة ترجع إلى تشييدات القرن الثاني عشر الميلادي أي اننا اننا نضعها ضمن مآثر الأيوبيين في اليمن أما القلعة الحديثة أو بالأحرى التشييدات المضافة اليها فقد بنيت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين .

وكيفما كان الحال فقد دعا بعض الخبراء الأختصاصيين الذين زاروا الموقع إلى ضرورة اجراء الحفريات الاركيولوجية فيه سعياً وراء معرفة الزمن التاريخي الدقيق للتشييدات القديمة

التي طرأت عليها تغيرات شاملة وهي الوسيلة الوحيدة فيما نعلم التي سوف تعطينا دليلا قاطعاً نعول عليه في تحديد هذه الفترة الزمنية تحديداً لايتسرب اليه الشك البته.

القلعة بين الميثولوجيا والأخباريات المروية :

والواقع أن تاريخ القلعة مشوب بالأسطورة الوافدة من الخارج هندية كانت تلك الأسطورة أم مسيحية ولعل هذا التعتيم الذي لمسناه في سياق الروايات المختلفة التي ساقها مؤرخوا القلعة يعود في تقديرنا إلى عبث الأسطورة ، ومما لاشك فيه أن الصبغة الأسطورية وصلت الينا من خلال احتكاكنا المباشر بالحضارات المختلفة وعلى الأخص الحضارة الهندية التي تغلب الأسطورة على نماذجها الحضارية وقد المحنا إلى ذلك تلميحاً في معرض حديثنا عن ميناء عدن القديم حيث قلنا اجمالا أن الميناء كان مرسى — منذ زمن بعيد — للسفن القادمة من كل المقاطعات والأصقاع الهندية(٥٦(وبديه أن تتأثر بهذه النماذج الحضارية الوافدة ذات الأنماط المختلفة ، وقد أمتد هذا التأثير إلى حياتنا المعاصرة ، ولكن في أشكال ومظاهر أخرى منها مايتعلق بالفن ومنها مايتعلق بالظواهر اللغوية التي تكاد اليوم تنمحي وتتلاشى.

ومهما يك من شيء فقد غدت صبره مرتعاً خصباً ومأوى حسناً للأساطير على مختلف أشكالها هندية واسلامية ومسيحية وعزا بعض الباحثين ذلك إلى أن مدينة عدن كانت في الأزمنة القديمة تتكون من أخدود بركاني هائل الفت حوله هذه الأساطير (٥٧) بيد أن الأسطورة الهندية على وجه الخصوص حظيت بأهمية خاصة لدى مؤرخي القلعة حيث حملت الينا على بساطها الحني ذي الرؤوس العشرة والغزال درسير الذي وفد على جبل المنظر(٥٨(وأحسن المنظر وفادته ، وهنومت(٥٩(أو هانومان

الاله القرد(٦٠(الذي حفر سرباً في ليلة واحدة من الهند إلى جبل صبره وأعاد زوجة رام جندر(٦٠(إلى اوجين بكرمي بالهند وسلمها إلى زوجها قبل انفجار الفجر الصادق على حد تعبير باخرمه(٦٢(وهي فيما يظهر إمرأة حسناء شغف بها حباً عفريت آخر واختطفها وسار بها إلى جبل صبره ، ولحق به هنومت . وقد استحال هذا السرب الذي حفر في ليلة واحدة إلى بئر مرعبة ذات نيران متوهجة ، يطلق عليها المؤرخون تارة (انبار) أو في (بر(وتارة أخرى (بئر الهرامه(وهي فيما يروي الحديث النبوي أنه يخرج منها يوم القيامه نار تسوق الخلق إلى المحشر(٦٣) وتناثرت حولها الحجارة المكسرات والأفاعي النائمات والحيات القائمات كما يقول باخرمه(٦٤(ويروي — والعهدة على الراوي — أن العلامة ابن كبن(٦٥(المتوفي سنة ٨٤٢هـ زارها وادلى بحبل إلى قعرها ثم رفعه فاذا بطرفه محروق ، وظلت النيران متوهجة في هذه البئر حتى أطفأها القديس (بارثلوميو(حسب ماتروي الأسطورة المسيحية.

القلعة بين المثولوجيا والاخباريات المروية :

والجدير بالذكر ان رواة هذه الأسطورة يختلفون في موضع البئر فمن قائل انها على ذروة جبل صبرة ومن قائل انها في حارة الزعفران بعدن ، بيد ان هذه البئر الاخيرة تمتاز بعذوبة مياهها حتى ان اهل عدن كانوا يصنعون منه النبيذ الجيد . وكما تختلف الآراء في هذا الصدد فهي ايضاً تتناقض تناقضاً ملحوظاً اذ يزعم الرواة ان البئرين معاً يستخدمان للشرب على الرغم من وهيجها(٦٦)

أما الاسطورة الاسلامية فقد اوفدت قابيل واقليمه الى جبل حديد فارين من ابيهما أدم حيث دفنا هناك هابيل ثم اغراهما الشيطان بعباده النار وابتنى لهما معبداً في ذروة الجبل (٦٧) وما لبث ان

داهم سليمان هذه السلسه الجبلية وأخرج ساكنيها من الجن والعفاريت الى غير رجعه .

اعتقادات قديمة حول القلعة :

وعلقت في الاذهان اعتقادات احرى هي امتداد طبيعي للاساطير من ذلك « عادة النشوح» او «ضحية الحبل» اذ يصعد القوم بسبعة ثيران الى القلعة ويربطون واحداً منها وتبقى حتى منتصف الليل ثم ترد الى المدينة ، وعند انبلاج الفجر يعود القوم ادراجهم ويذبحون الثور المربوط ويقذفون باشلائه حول القلعه اعتقاداً منهم بأن للسفن التي تعرقل سيرها في عرض البحر بسبب الرياح الموسمية سوف تمخر العباب وظلت هذه العادة حتى عصر بني زريع (٦٨) وهي تذكرنا بمثيلات لها في العالم فني مصر القديمة كان الاهالي يقدمون الفتيات الحسان الأبكار قربانا للنيل عند فيضانه ، وفي الهند ينذر المزارعون للمعبود الصنم دم واحد من المواطنين السذج يرشون به اصول قصب السكر اذا جاء المحصول جيداً ووفيراً (٦٩)

صفحة من تاريخ صيره الكفاحي :

لقد شهدت قلعة عصيرة معارك حاسمة خاضها الشعب اليمني ضد الغزاة المستعمرين الذين كانوا يجوبون الشواطئ اليمنية ويعيشون فيها فسادا بدءاً بالغزو الروماني في عهد القيصر كلوديوس وانتهاء بالغزو الاستعماري فقد اخرب المستعمرون الرومان ميناء عدن الرئيسي الذي يقع في سفح القلعة و يمتد من طرف جبل صيره وحتى معامل تكرير المياه سابقاً ، اذذكر المؤرخ المجهول صاحب كتاب «الطواف حول البحر الارتيري» ان حادثة تخريب الميناء وقعت قبل قدومه الى عدن بزمن قصير وكان يحكمها آنذاك ذو الاذعار الحميري

وابنه شرحبيل والحدير بالاشارة ان هذا الميناء ويعد من اهم واشهر الموانئ التجارية في جنوب بلاد العرب . ليس هذا فحسب بل ومن اهم الموانئ الحربية ايضاً في البحر الأحمر وكانت هذه القلعة بمثابة الحارس الامين له .

لهذا فقد انتبه المستعمرون بمختلف ملهم ومذاهبهم الى اهمية الموقع وضرورة الاستيلاء عليه . وكانوا يشنون الغارة تلو الاخرى على المدينة غير ان حاميه صبرة كانت ترد الصاع صاعين .

في الأعوام ٨٩٢-٩٠٩-٩١٠ هـ كانت السفن البرتغالية الاستعمارية تجوب الشواطئ اليمنية وفي عام ٩١٩ - هـ ١٥١٣م هاجم البرتغاليون مدينة عدن وتصدت جماهير الشعب والقوات الطاهرية اليمنية للعدو ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها عدد من الجنود البرتغاليين . وقد تضررت احياء المدينة وتهدمت بعض بيوتها كحافة القطيع ولكن الجماهير ابلت بلاء حسنا في المعركة وأجبرت الاعداء على الانسحاب وقد شعر الارهابي الفونسو ديلبوكيرك بالهزمة فامر جنوده بالعودة الى السفن وقد تملكه الغيظ فاحرق السفن اليمنية الراسية على الشاطئ ، واشار المؤرخ بافقيه الشحرى في تاريخه المخطوط الى الحادثة في حوادث عام ٩٢٢هـ وذكر من الشهداء الذين سقطوا في ساحة المعركة (عمر بن موسى المحدى او المحيدى وكان ممن ابلى واحسن بلاؤه على حد تعبيره (ك).

لقد اجمعت المصادر التي وقفنا عليها على ان المقاتلين كانوا يمتلكون قدرة فائقة في القتال في هذه المعارك كما يمتلكون قدرة فائقة في العده والعتاد وكانت المدننة محصنة تحصيناً قوياً بفضل تجهيزات القائد اليمني مرجان الظافرى الذى شارك بنفسه في المعارك وما يؤكد ذلك ماذكره ابن الديبع في كتابه الفضل المزيد من أن الأمير مرجان ابرز لحسين الكردى - قائد الجيوش الاستعمارية المملوكية من آله القتال وعده الحرب مابهره (خ) كما كانت المدافع اليمنية

تطلق حممها وبكثافة من حبل صبرة مما اجبر الاعداء على الفرار على الرغم من قوة تجهيزاتهم وحداثة اسلحتهم ولهذا فالمواجهة اليمنية للبرتغاليين لم تكن ضعيفة على نحو ماقال الدكتور محمد عيسى صالحيه في مقدمة كتاب الفضل المريد لابن الديبع فقد تمكن هؤلاء المدافعولأن اليمنيون من صد هجوم القوات البرتغالية واجبارها على الانسحاب (غ) .

كان الحراكسة المماليك حينها يجوبون شواطئ اليمن بحجة الحفاظ على الممالك الاسلامية ومد يد العون لقادتها المسلمين وهي حجة واهيه فقد هاجموا عدن وجرت بينهم وبين الجماهير الباسلة معركة قتل فيها جمع من المماليك وكانت القلعة ترسل عليهم وابلا من حممها الفتاكة، غير انهم دبروا خطة هي اقرب الى الخدعة العسكرية فعندما تبين لهم ان جنود القلعة نزلوا الى المدينة للمشاركة في الصراع الدائر في جنباتها ، تقدموا الى صبرة في جمع من جنودهم وضربوا المدينة بالمدافع ، وكانت مدافعهم كما يقول بافقيه في تاريخه المخطوط (تقع في اطراف البلد مما يلي شمسان (٧٢) كما رموا السور بمدافع عظيمة فهدم منه جانباً كبيراً .

ويذكر غير واحد من المؤرخين ان الجماهير كانت تشارك وبفعالية منقطعه النظير في صد هجمات المستعمرين المماليك وتتخذ الوسائل الممكنة لصد تقدمهم في المدينة واجبارهم على التقهقر ، والانسحاب بحيث كانت تستخدم السهام كما يذكر صاحب هدية الزمن (٧٣) .

وظل المستعمرون يجوبون الشواطئ اليمنية متخذين شتى الوسائل والحيل في سبيل الاستيلاء على بلاد الخير ففي عام ١٢٥١ هـ تذرع المستعمرون البريطانيون بمرور واه الا وهو جنوح السفينة داريا دولت على شاطئ عدن وانتهابها وهي ملك امرأة هندية اسمها

بيجم . وتقدم هينس شخصياً بهذه الشكوى الى السلطات الرجعية الحاكمة حينذاك في عدن والتي تواطئت فيما بعد مع الاستعمار البريطاني وقدمت له المدينة لقمة سائغة غير ان هذه السلطات انكرت اشتراك رعاياها في نهب السفينة وقد توعدها هينس وطلب منها اثنى عشر الف دولار او اعاده ممتلكات السفينة فاذعنت السلطات الرجعية لمطالبة واعادت له ماقيمته ثلثي الممتلكات او مايقارب ٧٨٠٨ ريال على ان تدفع الباقي بعد سنة واحدة وقد وصف هارولوف يعقوب في كتابه ملوك شبه الجزورة العربية ممثل هذه السلطة بأنه (اعظم مدمن على نهب حطام السفن وعلى الاخص في هذا الحادث ٧٤(والحقيقة التي لامراء فيها ان المستعمرين لايتخذون هذه الوسائل والحيل سعيا وراء المال فحسب بل وحبا في السيطرة على اراضي الغير وامتلاك ناصيه التجارة العالمية وتحقيق اهدافهم الاستعمارية في المنطقة لهذا لم يكتف هينس بالمال بل ارسل قواته وعتاده الحديث الى شاطئ عدن وجرت بينه وبين حاميه القلعة معركة غير متكافئة استشهد فيها عدد من المقاتلين اليمنيين في قلب القلعة كما عاث فساداً في الشاطئ وقتل عدداً من الصيادين واستولى بعد ذلك على المدينة واذعنت له السلطة الرجعية وعقدت معه عدداً من الاتفاقيات المشئومة بمقتضاها تمت السيطرة الفعلية على جنوب الوطن اليمني .

واذا كانت اليمن قد عانت من التجزئه والتفرقة في عصورها الوسيطة فقد بلغت هذه التجزئة اقصاها في جنوب الوطن في العهد الاستعماري واستقل كل سلطان بمنطقة نفوذه ، وتمكن المستعمرون من استخدام سياسة فرق تسد التي اغرقت الشعب اليمني في خضم الاضطرابات والصراعات الدموية ، ومن ثم تواتر عسف و اضطهاد السلطة الاستعمارية والرجعية لجماهير الشعب في المدينة والريف وتشكلت على اثر ذلك بوادر حركة وطنية ثم اندلعت —

بعد وقت قصير – ثورة الرابع عشر من أكتوبر الظافرة من جبال ردفان الشماء بقيادة الجبهة القومية وباندلاع هذه الثورة اهتزت عروش المستعمرين والطغاة في جنوب الوطن وكانت النهاية الحتمية في الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٦٧م .

لجنة اضاءة القلعة :

لقد بات واضحاً مما تقدم ان الاقدمين كانوا يولون اهمية خاصة لهذا الموضع وان شيئت هذه الاهمية بالصبغة الاسطورية . كما يحظي الموضع اليوم باهتمام المحدثين الذين ادركوا قيمة مآثرنا الحضارية وضرورة الحفاظ عليها والعناية بها بعد ان نالوا حظاً من الحضارة واكتسبوا قسطاً من العلم فقد توافدت البعثات العلمية الى اليمن منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي وحتى اليوم واستقطبت حكومة الثورة – وفق خطط التعاون الثقافي والعلمي فيما بينها وبين دول العالم وعلى الاخص اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية – عدداً من الخبراء والاخصائيين في هذا المجال بغرض دراسة المعالم التاريخية والاثرية والتنقيب عن مكامن الاثار ومكنوناتها في التربة اليمنية ، وقام هؤلاء الخبراء بسلسلة من الدراسات والابحاث الاكاديمية شملت عدداً من المآثر والمعالم الحضارية بما في ذلك القلعة ، ومن هؤلاء العالم السوفيتي سيرجي شيرنسكي سالف الذكر الذي قام في صيف عام ١٩٧٢م بتحقيق علمي للموقع وخلص الى القول انه بالامكان تحويل الجزيرة والقلعة معا الى مكان شيق ومثير على حد تعبيره . ولن يتاتى ذلك كمرحلة اولى الا باعادة اضاءة القلعة بشكل دائم لما في ذلك من اهمية ، تضفي على الوقع رونقاً خلاباً وبديعاً .

وقد تشكلت في صيف عام ١٩٦٩م لجنة اطلق عليها لجنة اضاءة قلعة عدن التاريخية عقدت اولى اجتماعاتها في ٦ أكتوبر عام ١٩٦٩م .

هوامش :ـ

(١) حمزة لقمان ص ٢٧٩.

(٢) أنظر تفصيل ذلك في تاريخ ثغر عدن باخرمه ١–٢٨–٢٩ .

(٣) انظر متن اللغة احمد رضا ٣–٥١٣.

(٤) انظر معجم البلدان ٣–٤٣٨.

(٥) أنظر متن اللغة ٣–٥١٣ ومختار الصحاح للرازي ص ٣٧٥

(٦) معجم البلدان ٣–٤٣٨ وذكر عدداً آخر من الصور منها جبل بأجاء في ديار طي فيه كهوف شبه البيوت . وجبل آخر على الطريق بين صبراف وعمان .

(٧) متن اللغة ٣–٥١٤

(٨) تاريخ ثغر عدن ص ٣٣

(٩) طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي ص ٩٣ .

(١٠) معجم مااستعجم ٣–٨٤٦

(١١) متن اللغة ٣–٥١٤

(١٢) فقه اللغة وسر العربية ص ٢٩٤

(١٣) المسالك والممالك للكرخي المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري

(١٤) الاخبار الطوال لابي حنيف الدينوري ص ٦٢ ويذكر ابن المجاور ص ١١٦ قوماً ملكوا عدن يسميهم (اهل القمر) ويقول انهم اخرجوا الصيادين من الجزيرة وسكنوا قمة الجبل الأحمر يبدو الجبل الذي يحاذي (العرة) اوشمسان ، كماسكنوا حفات وجبل المنظر ولهم فيهما آثار . ويذكر في موضع اخر ص ١٢٤–١٢٦ قوماً آخرين يسميهم الجاشو وملكهم قيس دوانيج الذين هاجموا الجزيرة في عهد بني زريع وقد احتل عليهم آل زريع وفتكوا بهم في موضع يطلق عليه « الجاجم) ومن المحتمل ان يكون على مقربة من صبره .

(١٥) معجم البلدان ٤–٨٩–٩٠ ورحلة ابن بطوطه ص ٢٥١ واخبار الدول وآثار الأول للقرماني ص ٣٦٤ والمفصل ٧–٢٧٣–٢٧٤ .

(١٦) أنظر نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشيخ الربوه المتوفى سنة ٧٢٧هـ ص ٢١٦ .

(١٧) انظر تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي في ضوء النمط الآسيوي للانتاج احمد صادق سعد ص ٢٩١ .

(١٨) مراصد الاطلاع البغدادي ٢–٩٢٣

(١٩) انظر ايضاً تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ص ٢٩١

(٢٠) تاريخ المستبصر ص ٦٥ وانظر ايضاً اكتشاف جزيرة العرب جاكلين بيرن ص ٤٨–٥٨ ويري الأستاذ الباحث حسن صالح شهاب ان المراد بالعام هنا الموسم .

(٢١) تاريخ المستبصر ص ١٢٨ .

(٢٢) نفس المصدر ص ١٣٨ ونظر ايضاً باخرمة ١- ٥٦-٥٧ وتاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ص ٢٩٣ - ٢٩٤

(٢٣) أكتشاف جزيرة العرب ص ٤٨ وتاريخ عدن ص ٢٩٤ - ٢١٥

(٢٤) باخرمة ١٠-٥٨

(٢٥) نفس المصدر ١-٥٨

(٢٦) ذكر ابن المجاور ان ادارة الضرائب الحمركية صادرت كمية من العود الردي« كما يبد على الناخوذه عثمان بن عمر الآمدي قدر ثمنه بستة دناتير وفرضت عليه ضريبة قدرها خمسة عشر ديناراً .

انظر باين المجاور ص ٤٤ وباخرمة ص ٦٤ ولقمان ص ٢٩٩ .

(٢٧) قيل ان البهار يساوي حمولة جمل وانه يتراوح بين ٣٠٠,٤٠٠و٦٠٠ رطل انظر تاريخ عدن ص ٣٠٠ .

(٢٨) باخرمة وابن المجاور

(٢٩) باخرمة ١-٥٨-٥٩-٦٣ .

(٣٠) ابن المجاور ص ١٤٣

(٣١) نفس المصدر ص ١٤٢

(٣٢) انظر تاريخ عدن . . ص ٣٠٠

(٣٣) باخرمة -١-٦٣

(٣٤) نفس المصدر ١-٥٨-٥٩

(٣٥) انظر تاريخ بافقيه الشحري (مخطوط) ص ٥٠ (اقوم الآن بدراسة وتحقيقه)

(٣٦) انظر أكتشاف جزيرة العرب ص ٤٨

(٣٧) انظر اليمن الجنوبي محمد عمر الحبشي ص ٦

(٣٨) رحلة ابن بطوطة ص ٢٥١ - ٢٥٢

(٣٩) باخرمة ١-٦١

(٤٠) رحلة ابن جبير المتوفى سنة ٦١٤ ص ١٤٨-١٤٩ ذكر ايضاً باخرمة مافعله علي بن عمر بن رسول لمادخل عدن ووصف تلك الأيام بقوله) وكانت الأيام شبه ايام المحشر كل منهم محتشر ينادي اين المفر)

(٤١) انظر تاريخ المستبصر ص ١٢٧-١٢٨ وباخرمة ١-١٣ غير انه يقول (وصل مركب من المقرب اي جهة هرموز فلعله تصحيف (مغرب)

(٤٢) أكتشاف جزيرة العرب ص ٤٨

(٤٣) نفس المصدر ص ٥٨

(٤٤) باخرمة - ١ -٢٩ .

(٤٥) هي في الحقيقة جبيل او قرن على حد تعبير علماء فقه اللغه العربية انظر الثعالبي ص ٢٩٤ .

(٤٥) اضواء على الآثار اليمنية ص ١٧

(٤٦) نفس المصدر ص ١٧

(٤٧) نفس المصدر ص ١٧